تقديس الحاضر

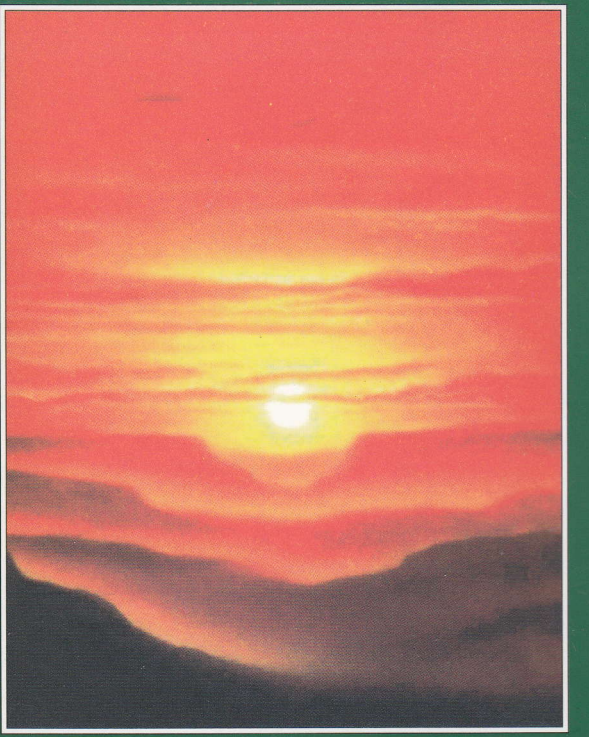

مكاريوس
الأسقف العام

مراجعة
نيافة الأنبا أرسانيوس

تقديس الحاضر

ما بين التفكير فى الماضى، والأرق بسبب ما فيه من مرارة وفشل، وما يصحبه من ندم وما يترتب عليه من صغر نفس وشكّ فى المصداقية.

وبين القلق على الغد، وعدم التأكد من النجاح فيه، والإستمتاع به، وإصابة الأهداف وتحقيق الآمال، وإدراك الطموحات: **يضيع الحاضر :**

يضيع الحاضر وهو الأهمّ ... إذ نملكه، فالأمس مرّ وأفلت منا بكل ما فيه، وتحوّل إلى ذكرى.

والغد كذلك .... لا نملكه .... ولا نعرفه، إذ هو فى يد الله .

فليتحول الأمس إلى ذكرى وخبرة تفيدنا فى الحاضر.

وليصبح الغد أملاً مشرقاً وأمنية جميلة، وثقة فى أن الله يرتب لنا فيه الخير.

والحديث هنا عن الحاضر ... إنه اليقين، إن كان هناك يقين غير الله!

فالأمس قد مرّ بكل ما فيه، إن كان خيراً وإن كان شراً.... إن كان كسباً أو كان خسارة، لم يعد سوى ذكرى[1] .... إن كنا قد أخطأنا فيه، فقد غفر الله لنا الماضى ، إبتلعه بكل ما فيه من شر .. من خيانة ... من ضعف ... أسدل عليه ستاراً فصار وكأنه لم يكن ... ألم نتب عنه؟! ألم نعترف به ... إذاً فهو غير باق .. غير قائم ولا سلطان له ... ألم يقل القديس يوحنا سابا المعروف بالشيخ الروحانى «أن التوبة تحوّل الزناة إلى بتوليين»!؟ أى كأنهم لم يخطئوا أصلاً (**هلم نتحاجج يقول الرب. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودى تصير كالصوف أشعياء ١ : ١٨**) .

إننا لا نستطيع أن نسترجع الماضى، وبالتالى فنحن لا نقدر أن نصلحه، أو نعدّله، لقد خرج من أيدينا وصار فى ضمير الزمن! .. ولكننا نستطيع أن نجعل اليوم أفضل منه ..

وفى محاسبة النفس والتى اعتدنا فيها أن نقيّم الماضى

---

١ ـ هناك فرقاً بين الذكرى والانفعال، فقد تستمر الذاكرة نشيطة تجاه بعض الأحداث ، بينما يتراجع الإنفعال المرتبط بها رويداً رويداً.

ونستخلص منه الخبرة، ونندم على ما صدر عنا فيه، إنما نبغى من وراء ذلك أن نجعل الحاضر أفضل من الماضى، ومن هنا فإن محاسبة النفس متى كانت إيجابية فهى لا تقتصر على الندم، وإنما هى مزيج بين الملامة والرجاء، الملامة على جهلنا وضعفنا وهفواتنا، والرجاء فى تحسين الحاضر.

المهم أنك حىّ اليوم ... نفسك حيّة ... سليمة، أشرق عليك صباح جديد ... وُهبت يوماً جديداً واملاً جديداً، تخيّل أنك إستيقظت فى الصباح لتجد الله مثل أب حنون يضع فى يدك نفقة اليوم (مصروف اليوم)، لتستطيع المواصلة، ولكنه هنا يضع ليس بعض الجنيهات أو بعض الجنيه!، وإنما وحدة زمنية كاملة، أربع وعشرين ساعة كاملة،-لتحقق فيها ما لم تستطع تحقيقه فى الأمس، لأن مراحم الرب جديدة فى كل صباح (**إنه من إحسانات الرب أننا لم نفنَ لأن مراحمه لا تزول هى جديدة فى كل صباح كثيرة أمانتك** مراثى ٣ : ٢١ - ٢٣) **وكأنها إعادة خلق يومية!!**

وفى أمثالهم يقول اليهود (ثلاثة لا يمكن إستعادتها :

سهم إنطلق، وكلمة خرجت، وفرصة ضاعت).

غير أنه من الرائع أن نكون راضين عن الأمس، غير نادمين .. فإن كنا قد أصبنا أو أخفقنا، فإن الله يحوّل النتائج إلى خيرنا دائماً، مهما كانت الأسباب والدوافع ومهما كانت الأعراض والنتائج.

فى الأمس أنجزنا خيراً ... واليوم يتضاعف الخير ...

ومع ذلك يجب ألاّ يفصل الإنسان نفسه عن ماضيه، فإننا نتعلّم من الماضى بل من الضرورى أن تكون هناك خطوطاً عريضة تربط بين الماضى والحاضر والمستقبل، مثل الإيمان والقومية والمبادئ الإنسانية، فإننا نتحدث هنا عن تنقية الحاضر والأمانة فيه والاستمتاع به.

أو ربما أخفقنا فى الأمس .. واليوم نتدارك الإخفاق .

وماذا يعنى المستقبل بالنسبة لنا : ؟

هل هو مصدر قلق؟ ينتزعنا من بهجة الحاضر. ويؤرقنا!؟

إننا لا نملك تحديد شكل المستقبل وحجمه، بقدر ما نملك تنقية الحاضر وجعله أكثر ملائمة وأكثر نفعاً

وبهجة، فالحياة تحتاج إلى **تفهّم وتقبّل وتعايش**.

هناك مثل يهودى يقول « لا تقلق على شرور الغد، لأنك لا تعلم ما يلده لك اليوم، فقد لا تكون غداً على قيد الحياة، وبذلك تكون قد أقلقت نفسك على عالم ليس لك!»(١)

فعندما يؤرقك التفكير فى المستقبل، وكيف تضمن فيه النجاح والراحة، اهتف فى أعماقك على الفور قائلاً **(ضامنى هو الرب)** فإن كثرة الأموال، ووفرة القوة الجسدية لا تضمن لنا سعادة الغد .. وكذلك وعود الرؤساء، وصكوك الأقوياء، لا تضمن لنا خيراً نبتغيه أو استقراراً ننشده (لا تتكلوا على الرؤساء ولا على بنى البشر، تخرج روحهم فيعودون إلى ترابهم مزمور ١٤٦: ٣، ٤)

ومن يشقى اليوم فى سبيل اكتناز المال، لينعم به فى الغد، فمن المنطقى أنه سيشقى فى الغد بذات الدافع، ويظل يلهث بلا حدود، وكأنه يسعى فى إثر سراب مُغرى(٢).

---

١ ـ تفسير متى ٦ : ٣٤ / وليم باركلى.

٢ـ مثل شخص يرمى بكرة بكل قوته، ثم يجرى خلفها لاهثاً حتى إذا ما لحق بها امسكها ليرميها من جديد، وهكذا.

الله ... هو ... هو امساً واليوم إلى الأبد (عب ١٣ : ١٨) لا يتغير ، ومن يضع على الله رجاؤه ويجعل فيه ثقته، فإن الله فى المقابل يهتم به ويقيم من ذاته ضامناً وكفيلاً له، هكذا يصّرح الله بفمه الطاهر (لأنه تعلق بى فأنجيه من ٩١ : ١٤).

وهكذا نؤمن بأن الله قادر أن يجعل من المستقبل حياة مشرقة مبهجة مثمرة. أشياء كثيرة تخصّ الغد، ربما لو عرفناها اليوم لفقدنا سلامنا واغتممنا، ولكن لنحيا كل يوم بيومه (أمر اليوم بيومه عز ٣ : ٤).

فليس من المناسب أن توزع طاقاتنا، ما بين الندم على الأمس والقلق على الغد، بل ليمضى الأمس حلماً وذكرى، وليصبح الغد أملاً مشرقاً، لئلاً نبدد القدرة على الإبداع فى الحاضر.

يقول بعض الحكماء (لاتندم على الأمس ولا تقلق على الغد، لئلاً يضيع من بين يديك جمال الحاضر) وفى صياغة مسيحية يمكن القول: (لا تندم على الأمس ولا تقلق على الغد، بل اهتم بساعتك لخلاصك).

تقديس الحاضر :

إننا نملك اليوم ... نملك أن نعمل فيه .. ان نقدسه. فاليوم هو مسؤليتنا ... ونحن سندان عن اليوم ... فإذا عشنا اليوم كما يليق، فإن ذلك يضمن لنا تقديس العمر كله.

فالحياة كلها عبارة عن وحدات Units والوحدة الواحدة هى **اليوم**، فهل يمكن أن نفصل اليوم عن الأمس؟ وعن الغد أيضا؟ ثم نحياه كوحدة مستقلة ... نحياه كله ـ ملء اليوم ـ فى قداسة وفرح ؟!

هل يمكن أن نستخلص اليوم من الماضى ومن المستقبل، ونحوّله إلى وحدة فعالة؟!

نفرح فيه بكل خبزة نأكلها.

وبكل كوب ماء نشربه

بكل شخص طيب نتقابل معه

بكل عمل رائع ننجزه

بكل معلومة مفيدة نحصّلها

بكل ليلة هادئة ننامها ...

يقول السائح الروسى (كانت الأشجار والأعشاب والطيور والأرض والهواء والنور ... كانت كلها تقول لى أنها وجدت من أجل الإنسان وأنها تشهد بمحبة لله للإنسان ... كل شئ كان يصلى ويرنم لله مجداً)[1].

وكما أن للحياة نفسها هدف أسمى، فإن لها أيضا **أهدافا مرحلية**، ومع مراعاة الهدف الأسمى فى جميع المراحل، فإننا يجب أن نحيا كل مرحلة ... حاضرها ... ملء حاضرها.

فنحن نستمتع بالدراسة فى الوقت الذى نعتبر فيه الدراسة هدفاً مرحلياً فى حياتنا، وذلك دون أن نحزن ونكتئب ونحن ندرس أملاً فى راحة ننتظرها بعد الدراسة. (أى فى مرحلة العمل) وهكذا يجب أن نفرح ونسر ونستمتع ونحن فى العمل، ثم ونحن فى الخدمة ... إلخ.

ومما هو جدير بالملاحظة، أن الاستمتاع بالعمل، له دور كبير فى نجاح ذلك العمل، إذ أن الإستمتاع يعنى الإقتناع بالعمل والرضى عنه ومحبته، مما يؤدى إلى ثمر متكاثر

---

١ ـ كتاب سائح روسى على دروب الرب/ الطبعة الحديثة ـ ص١٥ / لبنان .

ونجاح أكيد .. فإن محبة المادة العلمية والمعلومات عموماً تجعل من الدراسة عملاً سهلاً ومتعة كبيرة ...

وهكذا العمل ... وهكذا تربية الأطفال ... وهكذا جميع نواحى الحياة المختلفة.

إنها ليست فكرة أبيقورية :

فالأبيقورية تعتمد فلسفتها على رفض فكرة الخلود ونبذ التعليم عن الحياة الأخرى، ومن هنا فهى تدعو إلى ملء الكأس من اللذة قدر المستطاع فى الوقت الراهن، ولكن الفكرة هنا ـ فى مقالنا ـ قائمة على أساس تقديس الحاضر .. تقديس اليوم ـ كل يوم ..

كل اليوم .... يوماً بيوم.

كذلك فإن الأبيقورية متشائمة، تتوقع فى الغد شراً وفقراً وحرباً، ولكننا هنا نقدس الغد عن طريق تقديس الحاضر، لتصبح حصيلة الأيام التى قدّسناها وكرسناها (أى عشناها فى قداسة وبر) حياة مقدسة مثمرة،

فالسعادة تكمن لا فى تعاطى اللذات ولكن فى قمع الشهوات (١)

ولكننا نحن نرغب فى مذاقة الأبدية :

فإنه وحتى الحياة الأبدية التى نرجوها، ونحيا هنا مستعدين لها ومتشوقين إليها، ليست حياة مستقبلية بعيدة فحسب، وإنما هى حياة نحياها هنا، أو هكذا يجب أن يكون، فإنها حاضر ملموس ومستقبل أكيد.

فمذاقتها تبدأ هنا، ولن نبدأ فى التعرّف عليها، فالله **هو القاسم المشترك** هنا وهناك، حيث أن تعبيرى **ليأت ملكوتك** (متى ٦:١٠) **وها ملكوت الله داخلكم** (لوقا ١٧:٢١) (والتعبيرين تصريح شخصيٍ من الله نفسه) يؤكدان أن معنى الحياة الأبدية، هو أن يكون لله مركز حياتنا،

---

١ ـ تنتمى الفلسفة الأبيقورية إلى الفيلسوف أبيقورس، الذى ولد فى ساموس سنة ٣٤٠ ق م وتوفى سنة ٢٧٠ ق م، وقد علم أولاً فى آسيا الصغرى ثم أثينا، وجاءت فلسفته فى ظروف إجتماعية وسياسية غير مستقرة، تدعو إلى القلق وتنبئ بعدم الإستقرار، ومن ثم فقد نادى بالإستمتاع باليوم، وتكمن خطورة هذه الفلسفة والتى تأومها بولس الرسول، فى أن المتعة التى سعى إليها الأبيقوريون كانت متعة أنانية، وكذلك رفضت فكرة الخلود والحياة الابدية.

ومحور اهتمامنا، فيه تجتمع كافة اشتياقاتنا. وإن كانت الحياة الأبدية هى كتاب فإن الحياة الحاضرة هى مقدمة هذا الكتاب.

إن هناك خيطاً قرمزياً يربط جميع سنى الخليقة، كما ربط بين جميع مراحل الخلاص فى العهد القديم ... وإلى الأبد، وهو الخلاص والمكافأة والحياة مع الله.

فإنه ليس من اللائق فى شئ، أن نقضى الوقت فى كآبة وحزن، وأرق، فهل نكتئب اليوم فى انتظار الخير غداً؟

كلاَّ ، فاليوم أجمل وأفضل ... والذى لا يستطيع الاستمتاع باليوم ، قد لا يستطيع الاستمتاع بالغد، فإن روعة الحياة وجمالها وإبداعها، يكمن فى السويعات القليلة التى نحياها الآن، فإن ضاعت، فقد ضاع العمر كله ...

إقرأ ما كتبه أحد الفضلاء :

انظر إلى هذا اليوم

إنه الحياة ... جوهر الحياة

فى ساعاته القليلة تكمن حقيقة وجودك.

معجزة النمو

ومجد العمل

وروعة الإنتاج

فالأمس ليس إلا حلماً

والغد ليس إلاّ خيالاً

أما اليوم إذا عشناه كما ينبغى

فإنه يجعل من الأمس حلماً سعيداً

ومن الغد خيالاً حافلاً بالأمل ...

خلاص الحاضر:

هل يمكن أن نقتطع اليوم من كلّ من الأمس ومن الغد، وكأن الحياة تتركز فى هذا اليوم، وكأنك تعيش يوماً واحداً، وليكن يوماً مثالياً إذن، فلا تجعل اليوم تذييلاً للأمس ولا مقدمة للغد! ... بل اسع بكل قوتك لتخلص اليوم ... إسعى لتخلص الآن ...

إنك مطالب باليوم، مسئولٌ عن هذا اليوم ... ستدان عنه، كما ستدان عن كل يوم.

فالذى يوجد فيه الإنسان، ففيه يؤخذ وبه يدان، وإن حدثتك أفكارك بأن تستريح اليوم على أن تصلى فى الغد، فلا تطعها ... بل صلِّ الآن، لأن من لا يصلى اليوم - فى القليل المتاح - فكيف يضمن أن يصلى فى الغد ... فى الكثير غير المضمون ! .

(شيخ حدثته أفكاره من جهة الصوم قائلة «كل اليوم وتنسّك غدا فأجابها قائلاً : كلاّ. إن هذا لن يحدث ... بل أتنسّك اليوم ولتكن مشيئته الله غداً)[1] وتقول الأم سارة (الذى لا يعطى صدقة من فلس واحد لا يقدر أن يعطى من المئة دينار)[2]

هكذا عندما تُوغر إليك الأفكار، بأنه من الممكن أن تكون فى الغد أفضل حالاً من اليوم، فلا تصدقها ولا تطعها، فقد زيّنت لك ذلك بالأمس ولم يكن سوى محض ادّعاء!!

---

١ - بستان الرهبان / ص ٣٣٩ .

وفى كثير من الأحيان تكون المسافة بين شدة الاشتياق (إلى أى عمل روحى) وضياع نفس الاشتياق، مجرد ثوان!! شعرة .. خط رفيع .. بحيث إذا مرت بضع دقائق أو بعض الوقت، وعاد الإنسان للإمساك بالإشتياق والدخول به إلى حيز العمل، ليصبح فعلاً قائماً وثمراً وتعزية، فلا يجده ... بل قد يدفع نفسه دفعاً فلا يجد الرغبة ـ مجرد الرغبة ... نسبة من الرغبة.

إعمل اليوم ... بقدر قوتك إعمل ... ما دامت لك القدرة على العمل، يأتى وقت حين لا تقدر أن تعمل، وبينما لديك اليوم القدرة على العطاء والجهاد، فى حين تفتقر إلى الرغبة، فقد ينقلب الوضع فى الغد، بحيث تصبح لك الرغبة فى العمل بينما تكون قد فقدت القدرة على العمل!! فإنتبه .. (ينبغى أن أعمل .. ما دام نهار. يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل مسافة يوحنا ٩ : ٤).

أراد إنسان موسر، أن يعلم أولاده النشاط، فقال لهم «هل تعلمون كيف صرت غنياً؟ إن سمعتم مشورتى إستغنيتم مثلى» فسألوه عنها، فقال لهم: فى كل سنة

---

٢ ـ بستان الرهبان

يوجد يوم من أيامها، كل من عمل فيه باجتهاد استغنى، إلاّ أنه بسبب شيخوختى قد نسيت أى يوم هو، فلا تتوانوا أنتم فى العمل كل يوم، لئلاً يفوتكم العمل فى ذلك اليوم المبارك، فيضيع تعبكم فى السنة كلها، وهكذا نحن أيضا لسنا نعرف يوم وفاتنا، فإن توانينا فاتنا مقصدنا وضاع كل تعبنا، وإن إجتهدنا إلى الآخر وجدنا ملكوت السموات (١)

ومن هنا أيضا تأتى النصيحة الغالية لمعلمنا بولس الرسول **مفتدين الوقت** (أفسس ٥ : ١٦ ، ٢ وكورنثوس الثانية ٤ : ٥) حيث يعنى إفتداء الوقت : استبداله ، أن تستبدله بشئ من الصلاة، بخدمة ... بعمل محبة ـ بالمطالعة فى الكتب الإلهية، وبذلك تقدسه، فيصبح للوقت قيمة ، وبهذا يمكن أن يحسب العمر، بما نقضيه من وقت جميل، مثمر وفعال ومؤثر، وكما أن هناك شخصاً عاش فى الأرض ومات دون أن يترك أية آثار أو بصمات، فإننا نجد فى المقابل شخصاً مثل يوحنا المعمدان، خدم لمدة ستة شهور فقط، ولكن انظر كم تساوى من سنوات، وبنفس القياس

---

١ ـ المرجع السابق / ص ٢٠٩ .

يمكن أن تحسب لشخص آخر ٥٠ سنة × صفر، فتصبح المحصلة صفراً !!

إنه خداع شياطين .. الذين يدفعونك إلى التفكير فى الماضى، والندم عليه وتبديد الوقت والجهد فى ملامة كاذبة، وعندما تستريح من التفكير قليلاً فى الماضى، يستدرجك للتفكير فى المستقبل، ولكن بكثير من القلق.

إن هناك الكثير لنعلمه اليوم ... هناك الكثير لنستمتع به اليوم، إن الحياة أجمل وأروع من أن نفقدها فى الملامة الباطلة أو القلق المدمّر، حتى الآباء شيوخ الرهبنة وكبار النسّاك، إتسمت حياتهم بالبهجة والفرح، ولم يكونوا ولم يسلّموا أنفسهم إلى ضمير مريض غير سوى ... على الرغم من السجود المتواتر فى مئات الميطانيات، وساعات الصلاة والتسبيح، والصوم الطويل وضبط النفس والحواس، يقول القديس الأنبا ابوللو : «لماذا نجاهد ووجوهنا عابسة؟! ألسنا ورثة الحياة الأبدية؟ إتركوا العبوس والوجوم للوثنيين والعويل للخطاة، أما الأبرار

والقديسون فحرى بهم أن يمرحوا ويبتسموا لأنهم يستمتعون بالروحيات»(١)

انظروا أية استنارة تلك التى لهذا الأب. لقد كان هذا القديس دائم البشاشة، حيث اجتذب كثيرين إلى الحياة النسكية كحياة مفرحة فى الداخل ومشبعة للقلب بالرب نفسه.

وختام الأمر كله: ليكن يومك أفضل من الأمس وغدك أفضل من اليوم

فنحن فى يد الله يسير بجانبنا، وليس علينا سوى أن نواكبه، دون تطلع للوراء أو نظر إلى المستقبل ... مثل الطفل الذى لا يعنيه المستقبل فى شئ ولا يفكر فى الماضى ولكن حسبه فقط أنه مع أمه ... يستمتع بحنانها ويرعى فى حمايتها.

فاللحظة الحاضرة فقط، تستحق الاهتمام، إذ تحوى كنوزاً ثمينة، وكما أن الخيال قد يسلبك سعادتك ويسمم سلامك، ويحرّك آلام الماضى فيحييها فيك ويضاعف من

١ ـ تفسير انجيل لوقا / ص ٦٩٣ ـ إسبورتنج

مـرارتهـا، كـذلك فـإن المسـتقـبل هـو فى يـد الله، وليس من الإنصـاف أن نجـمع كل الاحـتمـالات السـيئـة فى (سلة واحدة) ونـتخيل كـل حجارة الطـريق قد جـمعت فى كـومة كبيرة لتسـده فتصيب الناظر والسائر بالعـجز والقنوط، إن قليل من الجهـد اليومى يمنع ذلك ويمكّننا من المرور يوماً فيوماً (١)

---

١ ـ يقـول چوزيف شـريفـرز فى كـتـابه (بـذل الذات) أن الـواقع هـو: فـرص تقـدم لله، وواجب يتـمم، وحـزن يحـتمل، وأحـيانا إسـتراحـة قصيرة تحت نظر لله.